ملك وشعب ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

ذكرتنى حوادث مصر الأخيرة يوم ثار قائدها الجبار وحواريوه المخلصون بوجه الطاغية فأزاحوه عن عرشه وأطاحوا به بعيداً عن البلاد التى نكب أهلها فى أرزاقهم وحرياتهم ، وأخرجوه ذليلا مهانا بعد ما استردوا الحرية التى فقدوها طيلة سنوات الظلم والرشوة والفساد ، وبعدما شبع ذلك الملك الخليع من أكل اللحوم البشرية وروى نهمه بشرب الدماء ، وبعدما فجر ماشاء له الفجور وفسق ما شاء له هواه أن يفسق ، وقامر بأموال الشعب الذى ائتمنه نخان ، ووعده فماطل وأخلف ، بقصيدة قالها شاعر يكاد أن يكون منسيا ؛ منبها الملوك الذين يهزؤون بمصالح الرعايا فتكون خاتمة حياتهم الفاجعة كخاتمة « فاروق » الذى صح فيه قول الشاعر البغدادى :

أعطيت ملكا فلم تحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

أو قول غيره

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ... لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهذا الشاعر هو المرحوم داود بك عمون وقد نشره فى مجلة « الزهور » التى كان يصدرها فى مصر المرحومان أنطون الجميل وأمين تقى الدين ، سنة ١٩١٤ « وهو شاعر مقل ولكن قليله رفعه إلى منزلة قصر عنها الكثيرون من المكثرين. ويمتاز نظمه بمتانة السبك وفخامته وسمو المعنى وجدته ، ويدل دلالة واضحة على توقد ذهن وشدة عارضة وعزة نفس ، أما نفسه فجاهلى عصرى معاً » (١)

ولما كانت الحالة الآن تستوجب الاطلاع على ما كان يعتلج فى قلوب الشعراء آنذاك من شر مستطير ينال الشعوب من جراء ظلم الملوك لها — والشعراء أنصاف أنبياء — أحببت أن أعرض على قراء « الرسالة » الزاهرة تلك القريحة العصماء التى ما كانت إلا صرخة فى وجه الظلم ولكمة فى صدر الملوك الطغاة الذين بلغوا منزلة من الضعة تشمئز منها حتى الذئاب فى ذلك الزمن، فكيف بالشعوب الآن وقد أزاحت عن نواظرها براقع الغفلة والجهل وفتحت قلوبها إلى الخير والحق والجمال

اللهم اهد ملوك الشرق وساسة الشرق إلى ما فيه صلاح الشعوب ورقيها لتتوا كب الحرية ولتأخذ حقها فى الحياة ، لا أن تسد آذانهم عن سماع صراخ المتوجعين وشكوى البائسين الجائعين.. وهاهى ذى رائعة عمون اللبنانى المولد (٢).. قال :

عذيرى من خلق باسل ... أحد وأمضى من الذابل

صليب على القسر لايلتوى ... إذا غمزته يد الناقل (٣)

إذا شاقنى الأمر صعب المنال ... مضيت ولو أنه قاتلى

ولو حال من دونه حائل ... مشت إخصاى على الحائل (٤)

حديد قوى النفس ذوهمة ... تضايق فى جسد ناحل

وأورثنيها فتى أمثل ... وأورثها لفتى ماثل

* * *

بلوت الزمان ، وأهل الزمان ... فخذ رأى مختبر عاقل

رأيت « الملوك » إذا أطلقوا ... أضر من الجارف الغائل

نفوس الرعايا ، وأعراضها ... ، وأرزاقها ، أكلة الآكل

وعودهمو برقها خلب ... وأقسامهم ضحكة الهازل (٥)

ولو عقلوا قيدوا نفسهم ... ومن لك بالمطلق العاقل

فتلك القيود ، ضمان العروش ... توطدها فى المدى القابل (٦)

حقوق « الملوك » بتقديسها ... دعاوى على الحق للباطل

هو الأجراء وإن توجوا ... عليهم لنا عمل العامل

وما ميز الله أشخاصهم ... بشئ ولكن رضى الحامل

* * *

بنى الشرق هبوا فقد طالما ... زحفتم إلى الدرك السافل (٧)

(١) مختارات الزهور ص (٨٩)

(٢) يشير نفسه إلى ذلك فيقول مرددا حنينه إلى لبنان

يا بنى أمى إذا حضرت ... ساعتى والطب أسلمنى

فاجعلوا فى « الأرز » مقبرتى ... وخذوا من ثلجه كفنى

(٣) صليب : قوى وصلب

(٤) إخصاى : مثنى إخص القدم

(٥) الخطب : الكاذب ، والقسام جمع قسم : اليمين

(٦) القابل : الآتى . القادم . المقبل

(٧) ورد البيت فى المختارات على هذه الصورة وعجزه زاحف وقد أصلحناه

بنى الشرق هبوا فقد طالما ... زحفتم فى الدرك السافل